الدماسة في قرقنة: حين تتحول ذاكرة البحر إلى تراث حيّ

بمناسبة الدورة السادسة من مهرجان الدماسة، التي ستقام من 21 إلى 24 أوت في العطايا بجزيرة قرقنة، تعود هذه الممارسة العريقة إلى واجهة الاهتمام، باعتبارها جزءًا من الذاكرة البحرية والتراث الحيّ للجزيرة.

في قرقنة، لا يمثل البحر مجرد مجال للصيد، بل هو ذاكرة، وفضاء للمعارف، وعنصر أساسي من عناصر هوية سكان الأرخبيل. فمنذ أجيال، طوّر القرقنيون تقنيات صيد تتلاءم مع بيئتهم البحرية، اعتمادًا على معرفة دقيقة بالأسماك، والتيارات، والفصول، وقاع البحر.

ومن بين هذه الممارسات العريقة تبرز **الدماسة**، وهي تقنية صيد تقليدية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بتاريخ سكان الأرخبيل ونمط حياتهم. واليوم، في وقت أدت فيه أساليب الصيد الحديثة والتحولات البيئية إلى تغيير تدريجي في التوازنات القديمة، أصبحت الدماسة تمثل أكثر من مجرد تقنية صيد تقليدية. فهي **تراث حيّ يستحق الحماية والتثمين ونقله إلى الأجيال القادمة**.

تقنية ولدت من لقاء الإنسان بالبحر

من أين جاءت الدماسة؟ ومتى بدأت ممارستها؟ وهل يمكن تحديد أصولها التاريخية بدقة؟

تظل هذه الأسئلة أساسية لفهم المكانة التي تحتلها هذه التقنية اليوم في الذاكرة الجماعية لأهالي قرقنة. وكما هو الحال بالنسبة إلى العديد من الممارسات التقليدية في الجزر، نشأت الدماسة وتطورت مع مرور الزمن من خلال ملاحظة الوسط البحري وتكيّف السكان مع الموارد المتاحة.

وهكذا، فإن تاريخها لا ينفصل عن تاريخ القرقنيين أنفسهم. ففي بيئة محدودة الأراضي الزراعية، يمثل فيها البحر منذ القدم مصدرًا أساسيًا للغذاء والدخل، طوّر السكان ثقافة بحرية حقيقية.

وتجسد الدماسة هذه القدرة على قراءة البحر، وفهم إيقاعاته، واستغلال موارده اعتمادًا على معرفة تجريبية انتقلت من جيل إلى آخر.

لماذا العطايا؟

إن استمرار هذه الممارسة في العطايا ليس بالتأكيد وليد الصدفة. فقد ساهمت الخصائص المميزة لسواحل قرقنة، وانخفاض عمق المياه في بعض المناطق البحرية، وطبيعة الوسط البحري، في تطوير تقنيات صيد تتلاءم مع هذه البيئة.

وتُمارس الدماسة في مناطق يكون فيها مستوى المياه منخفضًا بما يسمح للصيادين بالوقوف والتحرك سيرًا على الأقدام. وتُعد هذه الخاصية أساسية في تنفيذ التقنية، التي تعتمد بدرجة كبيرة على التدخل المباشر للصيادين داخل الماء.

وعلى مدى عقود، بل قرون، راكم الصيادون معارف تجريبية حول أماكن مرور الأسماك، والفترات المناسبة للصيد، وحركة المياه، والظروف الملائمة في البحر.

ولم تكن هذه المعارف مدونة في كتب أو أدلة، بل كانت تنتقل من خلال الملاحظة والتجربة والممارسة. وهذا تحديدًا ما يمنح الدماسة قيمة خاصة، إذ تختفي وراء تقنية الصيد منظومة كاملة من المعارف المتعلقة بكيفية عمل الوسط البحري.

تقنية تقوم على الانضباط والعمل الجماعي

تعتمد الدماسة قبل كل شيء على تنظيم جماعي دقيق للغاية. فكل قارب، أو **فلوكة**، يؤدي دورًا محددًا في عملية الصيد، بينما يخضع التنسيق بين مختلف المجموعات لإشراف مسؤولين يتولون قيادة عمليات الصيد وتنظيمها.

كما يشارك **البابور**، وهو المصطلح المحلي الذي يطلق على القارب الكبير المخصص للصيد، في هذا التنظيم إلى جانب مختلف الزوارق المستخدمة أثناء العملية.

وتتطلب هذه التقنية تنسيقًا كاملًا بين المشاركين. فأي خطأ يرتكبه أحد أفراد المجموعة قد تكون له انعكاسات على العملية بأكملها. لذلك يؤكد الصيادون أهمية الانضباط، واحترام التعليمات، والالتزام بالتسلسل والمسؤوليات داخل المجموعة.

وهذا التنظيم يجعل من الدماسة بمثابة **مدرسة للبحر**، يتعلم فيها الشباب ليس فقط الحركات والتقنيات المرتبطة بالصيد، وإنما أيضًا قواعد المهنة، واحترام الكبار، والتضامن، والعمل الجماعي.

كيف تُمارس الدماسة؟

تتمثل هذه التقنية، من بين خطواتها، في نصب **الدماسة والسور**، ثم تدخل **الخبّاطة**، وهم الصيادون المكلفون بضرب سطح الماء بالعصي وفق إيقاع وتنظيم محددين.

وتهدف هذه الحركات إلى دفع الأسماك نحو وسيلة الاصطياد. وتستهدف التقنية خصوصًا ما يعرف **بالأسماك القافزة**، مثل **البوري والميلة**، التي تسمح سلوكياتها للصيادين بتوجيهها نحو منطقة الصيد.

وتعتمد فعالية الدماسة، بالتالي، ليس على قوة الوسائل المستخدمة بقدر اعتمادها على دقة الحركات، واحترام الإيقاع، والتنسيق بين مختلف المشاركين.

كما تُمارس هذه الطريقة ليلًا. وفي هذه الحالة، تعتمد الداماسة الليلية بدرجة أكبر على الهدوء والصبر والملاحظة. إذ يقوم الصيادون بنصب شباكهم ويبقون في حالة من السكون النسبي، منصتين إلى إشارات البحر.

وقد يتم التعرف على مرور سرب من الأسماك من خلال حركة أو قفزة تظهر على سطح الماء، وهي إشارة تدل الصيادين على اللحظة التي ينبغي فيها بدء العملية.

وتُعد القدرة على قراءة أدق إشارات البحر وفهمها واحدة من أبرز الجوانب التي تميز هذه المعرفة التقليدية.

نشاط اقتصادي، ولكنه أيضًا أسلوب حياة

في قرقنة، لم يكن الصيد التقليدي مجرد نشاط اقتصادي. فقد ساهم في تشكيل أنماط الحياة، والتنظيم الاجتماعي، وحتى العلاقات بين الأجيال.

وكانت الدماسة جزءًا من الاقتصاد المحلي القائم على موارد البحر. فالأسماك كانت مصدرًا للغذاء والدخل بالنسبة إلى العائلات، بينما كانت الأنشطة المرتبطة بالصيد توفر مورد رزق لشبكة واسعة من الأشخاص.

لكن أهمية الداماسة تجاوزت بكثير بعدها الاقتصادي، فقد كانت جزءًا من الحياة اليومية للمجتمعات المحلية، وساهمت في ترسيخ هوية بحرية متجذرة بعمق.

وحتى اليوم، يشارك عدد من التلاميذ في هذا النشاط خلال العطلة الصيفية. وبالنسبة إلى بعضهم، تساهم المداخيل المتأتية من الصيد في تغطية مصاريف العودة المدرسية، ولا سيما شراء الملابس واللوازم المدرسية وغيرها من الاحتياجات.

وهكذا تستمر عملية نقل الدماسة أيضًا من خلال مشاركة الشباب، الذين يكتشفون ممارسة تقليدية قديمة، وفي الوقت نفسه يساهمون في دعم اقتصاد أسرهم.

علم تجريبي حقيقي للبحر

من أكثر الجوانب إثارة للاهتمام في الدماسة المعارف التي تعتمد عليها.

فلممارسة هذه التقنية بفعالية، يجب أن يكون الصياد قادرًا على مراقبة البحر، ومعرفة أنواع الأسماك وسلوكياتها وفترات وجودها وتحركاتها، إلى جانب فهم حركة المياه والظروف المناسبة للصيد.

وهكذا يصبح الصياد التقليدي، بطريقته الخاصة، مراقبًا دائمًا للوسط البحري.

وتستحق هذه المعرفة التجريبية اليوم اهتمامًا خاصًا. ففي سياق يتسم بتغير المناخ، وتراجع التنوع البيولوجي، وتزايد الضغط على الموارد السمكية، يمكن أن تشكل المعارف المحلية مصدرًا مهمًا للمعلومات لفهم تطور النظم البيئية بشكل أفضل.

ولا يتعلق الأمر، بطبيعة الحال، بوضع المعارف التقليدية في مواجهة العلم الحديث. بل على العكس، قد يكون التحدي الحقيقي هو **فتح حوار بين المعرفة العلمية والمعارف التي نقلتها المجتمعات المحلية عبر الأجيال**.

ممارسة تتطور دون أن تفقد هويتها

كما هو الحال في العديد من المناطق الساحلية، أدت عملية تحديث قطاع الصيد إلى تغيير الممارسات التقليدية في قرقنة.

وقد شهدت الدماسة نفسها تطورات على المستوى المادي. ففي الماضي، كانت تُمارس باستخدام قوارب شراعية، أما اليوم فأصبحت تُنفذ بواسطة قوارب مجهزة بمحركات.

لقد تغيرت الوسائل، لكن الصيادين يؤكدون أنهم حافظوا على جوهر الطريقة، وعلى إيقاعها وتنظيمها وقواعدها والقيم التي ترافقها.

وهكذا تظل الدماسة بمثابة **مدرسة حقيقية**، تنتقل فيها الحركات والمعارف إلى الأجيال الجديدة.

ومن هنا، فإن المسألة لا تتعلق بالعودة إلى الماضي بقدر ما تتعلق بالقدرة على الحفاظ على معرفة قديمة وتكييفها مع واقع الحاضر.

موسم يحترم دورة التكاثر

تُمارس الدماسة خلال فترة محددة من السنة، عادة من نهاية شهر جويلية إلى نهاية شهر سبتمبر.

وعند انتهاء هذه الفترة، يتوقف الصيادون طوعًا عن ممارسة هذه التقنية، حتى يتركوا الأسماك تتكاثر.

ويعكس هذا القرار نوعًا من احترام الدورة الطبيعية للأنواع، كما يشهد على معرفة تجريبية بإيقاعات الحياة البيولوجية للوسط البحري.

كما تمثل هذه الممارسة الموسمية مثالًا مهمًا على الطريقة التي تتضمن بها بعض المعارف التقليدية قواعد تهدف إلى الحفاظ على الموارد الطبيعية.

تغيرات يلاحظها الصيادون في الوسط البحري

يتحدث صيادو قرقنة أيضًا عن تغيرات لاحظوها على مدى السنوات في بيئتهم البحرية.

ومن بين هذه التغيرات، يشيرون إلى تزايد وجود بعض أنواع السرطانات البحرية، التي تُعرف محليًا باسم **فكرون** .
ويستخدم بعض الصيادين تسميتي **داعش** و **حفتر** للإشارة إلى هذه السرطانات، وهي تسميات شعبية ترتبط، في تصورهم المحلي، بطبيعتها التي يعتبرونها ضارة.

وبحسب الملاحظات التي ينقلها الصيادون، فإن تزايد وجود هذه السرطانات تزامن مع اختفاء بعض الأنواع التي كانت معروفة في السابق في الوسط البحري، ومن بينها **قنفذ البحر**، إضافة إلى كائن بحري محلي يسمى **قرن الحريش** ، كان الأهالي يجمعونه في السابق لاستهلاك لحمه الأبيض.

وبطبيعة الحال، لا يمكن لهذه الملاحظات المحلية أن تحل محل البيانات العلمية اللازمة لتحديد الأسباب الدقيقة لهذه التغيرات. لكنها تمثل مع ذلك شهادة مهمة على كيفية إدراك الصيادين للتحولات التي يشهدها محيطهم البحري وتنوعه البيولوجي.

وهي تبرز، قبل كل شيء، أهمية توثيق المعارف المحلية وربطها بالملاحظات العلمية، من أجل فهم التحولات التي يشهدها النظام البيئي البحري في قرقنة بصورة أفضل.

مهرجان الدماسة: من الذاكرة إلى نقل المعرفة

في هذا السياق، يمكن أن يؤدي **مهرجان الدماسة** دورًا مهمًا للغاية.

ففي دورته السادسة، لا يقتصر المهرجان على تقديم تقنية قديمة للصيد، بل يهدف إلى التعريف بالدماسة، وتثمين بعدها التراثي، والمساهمة في الحفاظ عليها.

وتكتسب هذه المبادرة أهمية خاصة في سياق الاعتراف بالتراث الثقافي اللامادي لقرقنة. فبعد إدراج **الشرفية** ضمن قائمة التراث الثقافي غير المادي لليونسكو، أصبحت المبادرات الرامية إلى تثمين ممارسات تقليدية أخرى في الأرخبيل تكتسب بدورها أهمية خاصة.

ويمكن للمهرجان أن يتحول إلى فضاء حقيقي لنقل المعرفة بين الأجيال، بما يسمح للشباب القرقني باكتشاف المعارف والحركات التي ورثوها عن أجدادهم.

كما يمكن أن يساهم في تقريب الصيادين والباحثين والجمعيات والفاعلين في القطاع السياحي والمؤسسات، حول هدف مشترك يتمثل في جعل الحفاظ على التراث أداة للتوعية والتنمية المستدامة.

ويساهم المهرجان أيضًا في التعريف بهذه الممارسة خارج الأرخبيل. فالاهتمام الذي يبديه بعض الزوار والصحفيين الأجانب يبين أن الدماسة يمكن أن تكون كذلك وسيلة لاكتشاف التراث البحري لقرقنة، وأن تساهم في تعزيز الجاذبية الثقافية للجزيرة.

نحو تراث يخدم الاقتصاد المحلي

لا ينبغي النظر إلى الحفاظ على الدماسة باعتباره مسارًا مرتبطًا بالماضي فقط.

فإذا تم تثمينها بالشكل المناسب، يمكن أن تتحول إلى فرصة للمستقبل. وقد يساهم تطوير سياحة بيئية تقوم على التراث البحري، والمناظر الساحلية، والتنوع البيولوجي، والمطبخ المحلي، والحرف والمعارف التقليدية، في خلق مصادر دخل جديدة للمجتمعات المحلية.

ويمكن للدماسة أن تكون نقطة انطلاق لتجربة أوسع، تتيح اكتشاف قرقنة من خلال بحرها، وصياديها، ومنتجاتها، وتقاليدها وبيئتها.

وينسجم هذا التوجه مع رؤية للتنمية لا تفصل بين التراث والبيئة والغذاء والاقتصاد المحلي، وإنما تعتبرها أبعادًا مختلفة لفضاء واحد وهوية ترابية واحدة.

الحفاظ على الدماسة هو الحفاظ على جزء من قرقنة

في النهاية، يبقى السؤال الحقيقي هو: ماذا نريد أن ننقل إلى الأجيال القادمة؟

هل هي تقنية صيد قديمة ؟ أم حركات وأدوات ؟ أم تقليد؟ أم تاريخ؟ أم، على نطاق أوسع، طريقة خاصة لفهم البحر واحترامه؟

ربما تكون الإجابة مزيجًا من كل ذلك.

فالداماسة تمثل **ذاكرة حية للعلاقة التي تجمع القرقنيين ببيئتهم البحرية** . والحفاظ عليها لا يعني بالضرورة العودة إلى ممارسات الماضي أو رفض الحداثة، بل يعني قبل كل شيء حماية المعارف والحركات والقواعد والقيم التي لا تزال قادرة على اكتساب معنى في عالم اليوم.

ويمكن لمهرجان الدماسة أن يساهم تحديدًا في هذا المسار من خلال تحويل ذاكرة محلية إلى تراث حي، ثم جعل هذا التراث أداة للتوعية ونقل المعرفة ودعم التنمية المستدامة.

في قرقنة، أطعم البحر أجيالًا متعاقبة. واليوم، ربما حان الوقت لكي تجد المجتمعات والجهات المعنية السبل الكفيلة بالحفاظ على هذه العلاقة القديمة بين **الإنسان والبحر والتنوع البيولوجي والأرض**.

وقد تكون الدماسة واحدة من أثمن الشهادات على هذه العلاقة.